مذكرات داوود الحسيني[1]
حول الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ – ١٩٣٩[1]

سميح حمّودة**

النص التالي كتبه المرحوم الدكتور داوود الحسيني على دفتر صغير كان محفوظاً في أرشيف جمعية الدراسات العربية بالقدس قبل أن تقوم السلطات الإسرائيلية بإغلاقها، وحمل النص عنوان: «بريطانيا وفلسطين وواجبي،» وهو واقع في أربع وعشرين صفحة، ومكتوب بخطٍ مقروء إلى حدٍ كبير، مع وجود الكثير من الشطب والتعديل. لاً يوجد تاريخ مدوّن للنص، ولكنٍ من المؤكد أنّه كتب بعد السادس عشر من شباط ١٩٤٣، تاريخ وفاة عارف درويش الجاعوني[2]، حيث يشير إليه الدكتور داوود الحسيني بالمرحوم، وقبل أيّار ١٩٤٨ تاريخ انتهاء الحكم البريطانيٍ في فلسطين، وذلك لأنّ الحسيني حرص على عدم ذكر أسماء الأحياء من مرافقيه في الجهاد صراحةً حتى لا يعرضهم لبطش الإنجليز.

في العام ٣٨٩١ قام الدكتور داوود، وكان قد بلغ الثمانين من عمره، بتسجيلٍ صوتي لتذكراته عن المحطّات الأساسية في حياته، وعن نشاطه الجهادي والسياسي، وقد تمّ لاحقًاً تفريغ هذه التسجيلات وتنضيدها ألكترونياً من أجل نشرها في الأردن،٣ إلاّ أنها لم تنشر حتّى الآن،٤ وفي هذه الذكريات سردٌ لبعض أحداث الثورة العربية الكبرى في فلسطين التي تطرق إليها الدكتور داوود في هذا النصّ، كما أنّ فيها ذكراً لأحداث وتفاصيل أخرى حول مسيرة الثورة لم يتطرق لها في هذا النص الذي ننشره هنا. والواضح أنّ هذا النصّ لم يكن بين يدي الدكتور داوود حين أعدّ تذكراته عام ٣٨٩١.

يفيدنا نصّ عام ٣٨٩١ في معرفة الأسماء الحقيقية لبعض من لم يذكر الدكتور داوود أسماءهم في النصّ الحالي، كما يفيدنا في فهم تفاصيل أخرى. ورغم وجود انسجام عام بين النصَّين، إلاّ أنّه يوجد بعض الاختلافات بينهما، والتي سنشير إليها في مواضعها، وهي اختلافات ناجمة عن التفاوت في قوة ذاكرة الدكتور داوود بين التاريخين، وهي اختلافات، على أية حال، ثانوية ولا تقلّل من قيمة وأهمية ومصداقية النّصّين.

* سميح حمّودة: قائم بأعمال رئيس دائرة العلوم السياسية في جامعة بيرزيت.

ما قمنا به في تحرير النّص التالي يشمل

- الإشارة في الهوامش لبعض مواضع الشطب والتي وجدنا أنها تتضمن معلومات مهمة تستحق التسجيل، ومنها مثلاً رأيه في فخري عبد الهادي، أحد القادة في الثورة في مرحلتها الأولى واليد اليمنى للقائد العام فوزي القاوقجي، ثمّ الناشط ضدها في مرحلتها الأخيرة من خلال فصائل السلام.
- إضافة بعض التوضيحات والشروح في مواضع اعتقدنا بلزومها.
- تصحيح أخطاء لغوية قليلة واستخدام أدوات الترقيم المختلفة في المواضع التي غفل الدكتور داوود عن استخدامها.

بريطانيا وفلسطين وواجبي

شكراً لك بريطانيا فلك الفضل الأول في التعجيل في بعث الروح الوطنية المتأججة في نفوس العرب عن طريق خلقك للصهيونية في فلسطين. تلك الصهيونية المبنية على مبدأ مآزرة شعب مشتت في أنحاء المعمورة «ضربت عليه الذلة والمسكنة إلى يوم الدين»٥ لإحلاله في دار شعب آمن ينشد الحياة عن طريق العمل والشرف.

على هذا المبدأ وعدت بريطانيا العظمى، «تلك الدولة العظمى التي لا تغيب الشمس عن علمها،» اليهود بفلسطين، ذلك الجزء الجنوبي من سوريا، وعليه هبّت فلسطين رجالاً ونساءً، شيباً وأطفالاً، للذود عن الوطن الحبيب المفدّى، مع علمهم بقوة خصمهم بالمال والسلاح والنظام والدعاية الكاذبة. فالحق يولد القوة لا السلاح، وقد مرت على فلسطين منذ عام ٩١٩١ حتى ٠٢ نيسان عام ٦٣٩١ أيام دامية وعصيبة.

ففي إحدى الأيام في أوائل مايس [أيّار] من عام ٦٣٩١ كنت أجلس إلى مائدة في مقهى المغربي في يافا وبعض من إخواني٦ نتجاذب أطراف الحديث من هنا وهنالك، وعمّا وصلت إليه البلاد من تدهور سياسي ومالي وأخلاقي بفضل السياسة التي تتبعها بريطانيا العظمى في فلسطين لمساعدة إنشاء الوطن القومي، وفيما نحن في ذلك تقدم منا صديق آخر، ومعه شخص مديد القامة مهيبها يلبس الكوفية والعقال والقنباز، وقدّمه إلينا قائلاً صديقي عبد الرحيم الحاج محمد من ذنابة طولكرم، وأحد تجّارها المعروفين، فرحَّبنا به، وجلس يستعرض معنا الحالة مظهراً استعداده للعمل الجدِّي في الجبال، وذلك عن طريق تأليف فرق من الشباب النشيط لمهاجمة كل ما هو بريطاني بالسلاح، فحبَّذ أكثرنا فكرته، وانسحب الاثنان اللذان لم يريا رأي الأكثرية. ولما انفض اجتماعنا بعد حوالي الساعة كنا قد رتبنا ما يلي:

١. يعود عبد الرحيم الحاج محمد، الذي عرف بعدئذ ب «أبو كمال،» إلى منطقته لإشعال النار بين الشباب وتأليف الفرق للعمل.[٧]

٢. وأنا وأخوين آخرين لجمع المال من الإخوان الذين يمكننا مجاهرتهم بمشروعنا ونعتقد بمآزرتهم.
٣. أن نشتري ما يتيسر من السلاح والعتاد وإرساله إلى الإخوان بناءً على تعليمات منهم وترتيباتهم الخاصة.

وقد جمعنا من قلائل من يافا في اليوم الثاني أكثر من (٢٥٠) جنيهاً[٨]، دفعها متبرِّعوها عن طيبة خاطر على أن يكرروا الدفع في حالة نجاحنا، وبدأنا في البحث عن السلاح. وبعد خمسة أيام تمكنّا أن نشحن بواسطة ما[٩] حوالي العشرين بندقية، مع عتاد واف جيد، وعدد من المسدسات، وصندوق من أصابع الديناميت. وعلى أثر استلام أبوكمال هذه الكميات الضئيلة، بدأ بأعماله. وبعد ذلك بشهر اتصلت وصديقي (م)[١٠] بعارف عبد الرازق «أبوفيصل،» واتفقنا معه على أن نمدَّه أيضاً بما نقدر عليه. وهكذا بدأت حياتي العملية في خدمة فلسطين، وسأسرد بعض الحوادث الخاصة التي جرت لي وصديقي (م) الذي اشتغلت وإياه بفكر واحد وعمل واحد ويد واحدة مدة طويلة أثناء الحوادث التي جرت ما بين مايس ١٩٣٦ وأيلول ١٩٣٧[١١] ثم من خلال أشهر من ١٩٣٨:

١. كنت وصديقي (م) على موعد وأبا محمود[١٢] (رسول ومعتمد للمرحومين أبوكمال وأبوفيصل) ربطنا له في مكان ما قرب اللد، وذلك حوالي الساعة ٩ من أيام تموز ١٩٣٧، فلمّا وصلنا إلى مكان الموعد لم نجده، ولكنّا شاهدنا على مسافة قريبة من المكان حشد من الأهالي فجرَّنا تطفلنا إليه، وفي الطريق شاهدنا بغلة أبومحمود وحيدة، فسألنا عن صاحبها وعن السبب للتجمهر، فقيل لنا أنه ألقي القبض من طرف الأهلية على فلاح مرسل من دائرة التحري للتجسس، فأخذ هذا الفلاح وضرب وأهين وهو الآن معتقل في مكان ما، فخفنا أن يكون هذا المتهم بالجاسوسية هو صاحبنا. وقد صدق ظنّنا لمّا وصفوه لنا، وبما أنّنا غير معروفين لدى المتجمهرين، وجدنا أنّه من المستحسن أن نستنجد بأحد الوجهاء لإطلاق سراح «أبو محمود»، وكان ذلك. وقد أخبرني أحد المتجمهرين (حين ذهب صديقي للاتصال بوجيه) أنّ هذا الجاسوس اللعين كان يضحك مع كل عصا أكلها وكلّما أهين، ولم ينطق ببنت شفة. فقلت في نفسي بورك فيك «أبومحمود» وكان الله معك كلما نزلت العصا عليك. فسألت أحدهم: كيف اشتبهتم به وكيف ألقيتم القبض عليه؟ فقال: حضر بالصباح المبكر، وجلس قرب البيادر وبدأ يتكلم عن الثورة حاضاً الشباب ودافعاً إيّاهم للعمل ضد الانكليز واليهود، فلمّا سألناه من هو؟ ومن أين؟ رفض الإجابة، وعليه اشتبهنا به وضربناه، وهو لا يفترُّ يضحك مع كل عصا. وقد سعيت وصديقي أن لا يعلم المتجمهرون شخصية «أبو محمود» خوفاً عليه من عيون التحري، وقد داومنا على الاتصال مع الجبال وعن طريق اللد و«أبو محمود» مدة خمسة أشهر قبل أن نشتمَّ أن تلك الجهة أصبحت تحت مراقبة التحرّي [البريطاني]. وكنا في مكان ما في تلك الجهة نخزِّن كلَّ شرواتنا من السلاح، ولم يعلم بمكانها إلاّ الحارس. فقد كنا نتسلم من الحارس الكمية المطلوبة بأنفسنا ونسلمها في مكان آخر ل «أبو محمود» لنبعد العين عن المخزن، وحتى لا يعرف الأشخاص بعضهم، خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه.

٢. تسلمت وصديقي (م) مرة كمية من العتاد من دار وجيه معروف في الرّملة [١٣] لتسليمها إلى مستودع على طريق رام الله اللطرون، وقبيل تركي الدار أتتني الإخبارية التالية: إنَّ البوليس يراقبك وسيلحق بك بعد تركك للرّملة ويوقفك ويفتشك ليلقي القبض عليك في الجرم المشهود، لأنّه قد وصلته أخبار بمهمتك. إلاّ أن أهمية إيصال ما معي جعلني أسرع في تنفيذ وإيصال ما كنت أحمل. وتركت الرّملة قبل أن ينتبه البوليس الانكليزي إليّ. وعن طريق غير الطريق العام، وأوصلت ما كان معي بالسلامة، وقبيل دخول رام الله قابلتني مصفحة بوليس إنكليزي وأوقفتني، وطُلب منّي أن أبرز إجازة سواقتي ليتحققوا من شخصي، ولمّا أبرزتها أنزلوني وفتّشوا السيارة بكل دقة، ثم تابعت سفري لعدم وجود أيِّ شيء معي، ولمّا عدت ليافا بعد يومين مررت بالرّملة وأُخبرت بالقسم الذي لم أعلمه من القصة. وهو لمّا لم يلاحظ البوليس خروجي من الرّملة سأل عنّي حيث كنت، فبُلِّغوا خبر تركي، فلاحقتني مصفحة (ولكن أنّا لها ذلك) ولمّا وصلت المصفحة قرية عمواس سألت عنّي من فيها، المختار وغيره، فأنكروا معرفتي، ولكن قالوا أنّه تمر سيارات مختلفة، فتابع البوليس حتى بيت عور التّحتا. وسألوا أيضاً فأجيبوا بنفس الروح والجواب. فعادوا أدراجهم، ولمّا عادوا وجدوا أنّ خبر مروري برام الله قد وصل بوليس الرّملة هاتفياً، فاستاءوا لإفلاتي من أيديهم، ولكنّ اسمي وأوصافي مع سيارتي عُمِّمت على كل مراكز الشرطة للتّحري ودرس حركاتي لإلقاء القبض عليّ بالجرم لتعليقي. [١٤]

٣. وبعد شهر تقريباً على حادث الرّملة أعلاه، اضطررت أن أمُرَّ بالرّملة مرةً ثانيةً لإيصال كمية للمخزن إيّاه على طريق رام الله. فعرجت على دار صديق لي موظف كبير [١٥] كنت على علم أن زوجته وأمّها يرغبون في السفر للقدس، فعرضت عليهما مرافقتي من دون أن أعلمهما بحمولتي فقبلتا، ومن لهما أقرب مني. فتركنا الرّملة ثلاثتنا على الطريق العام، فشاهد البوليس سيارتي ومن فيها فغشّه المظهر فلذلك لم يهتم أبداً، ولما وصلت إلى مكان ما يبعد حوالي العشرة كيلومترات عن المخزن، حيث قررت التفريغ، لئلاّ تريا المخزن، بلّغت السيدتين قصتي لأنّهما ستريان التفريغ، فضحكتا، ولم نترك ثلاثتنا الملح عن المهمة حتى أوصلتهما مقصدهما في القدس، ولما عادتا للرّملة وبلّغتا الصديق بالحديث، وصادف أنّي كنت في زيارته في داره، عزمني بأن أعيد العملية مرة ثانية، وكثيراً ما تمالحنا بالحادث في جلساتنا العائلية.

٤. اتفقت وصديقي (م) بعد دخول البطل فوزي القاوقجي للبلاد مع صحبه المجاهدين العرب [١٦] أن نزوره، وفي الوقت نفسه أن نجتمع إلى عارف عبد الرازق الذي لم نكن حتى ذلك الوقت قد اجتمعنا إليه. [١٧] وكان يوم جمعة [١٨] صباحاً لمّا تركنا يافا بالقطار لطولكرم، فتوجهنا فوراً إلى دار صديق لنا حيث كان قد سبقنا إليها ثياباً قروية. وتركنا طولكرم ولم نُعلم فيها أحداً خوفاً من تورّيط من لنا فيها من أصدقاء وأقارب موظفين. [١٩]

ذهبنا إلى الطيبة حيث تناولنا طعام الغداء على مائدة عارف عبد الرازق وصحبه، قبيل العصر بلغنا أن رَجُلَنا ويدنا اليمنى الأخ خليل بدوية [٢٠] قد قتل في معركة [بلعا] يوم الخميس (أمس). [٢١] وكان خليل رحمه الله البالغ من العمر ٢٠ عاماً وحيد أمِّه الأرملة قد ترك دراسته الثانوية في القاهرة ليقوم بما عليه نحو وطنه، فاشتغل معنا كمدير نقليات بين

المخازن والقادة في الجبال، وكان صخري الإرادة يعتمد عليه، مؤمناً بواجبه لا يؤخِّرُ عمل يومه، وكان عنيداً جسوراً.

تركنا حالاً الطيبة، وعن طريق فرعون اتجهنا حيث وجدنا خليلاً ملقىً على ظهره وقد اخترقت الرصاصة جمجمته.[٢٢] وكان جلده طرياً ووجهه باسماً، فحملناه إلى فرعون[٢٣] (مركزه قبل استشهاده)[٢٤] حيث كان مقره الأخير. وتابعنا مسيرنا إلى كفر اللّبد. فاجتمعنا بشيوخها وتباحثنا في أمر تعزيز حامية القرية، ولتعمل أيضاً كاحتياط تساعد المجاهدين حين الضرورة، لبينما تنتهي الترتيبات التي يقام بها من أجل إيجاد قيادة عامة وتقسيم الحركات، فوعدوا بذلك. وعند طلوع الفجر تركناها عائدين إلى عنبتا[٢٥] ومنها رأساً إلى بلعا.[٢٦] وقد شاهدنا تلك القرية الشامخة الأبيّة ويد الظلم [منذ] قبل ست وثلاثين ساعة تنسف فيها.[٢٧] وجدنا نساءها ورجالاتها مملوئين حمية وحماسة وقد زادهم نسف بيوتهم إيماناً بحقهم والعمل على أخذه بالدم والحديد. ومن الصدف اللطيفة بعد أن تركنا بلعا قبل الظهر، [أنّنا] صادفنا امرأة متقدمة في السن عائدة من علاّر[٢٨] وهي تزغرد وتقول: «كل شيء في سبيل البلاد، فسنقدم دمنا فداك يا وطن.» وقد تأثرنا جداً من شكلها،[٢٩] وقالت «إنّ الرجال في علاّر يستعدون فاذهبوا وآزروهم، والله يا بني لا يخلصنا من الجور والظلم إلا دمنا وسلاحناز» وما أن بدأنا نصعد جبال علاّر حتى قابلنا أول كشّاف، فلمّا عرف من نحن أعطانا كلمة المرور التي سهلّت لنا الطريق، لأن حرس القاوقجي كان منتشراً في كل مكان، ولا يدع أيّاً يمر، إلاّ بعد التحرّي الدقيق وأخذ الإذن ممّن هم أعلى منه. ولم نقدر أن ندخل علاّر إلا قبيل العصر، حيث وجدنا الإخوان على الأسمطة فأكلنا بشهية. وبعدئذ تعرفت وصديقي (م) لأول مرة على البطل المغوار فوزي القاوقجي،[٣٠] وغيره من المجاهدين الأشاوس الذين معه من البلدان العربية.[٣١] وقد وفد عليه ونحن هنالك أبوكمال [عبد الرحيم الحاج محمد]، فاجتمعنا إليهم طويلاً، ورتَّبنا وإيّاهم خِطَطَنا لجمع كلمة القرى، وتجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال. وكان ملخَّص ترتيباتنا كما يلي:

أ- أن نفرض البنادق على القرية بنسبة عدد رجالها.

ب- يقسم الرجال في كل قرية إلى قسمين: الأول، يخرج للجهاد، والثاني للاحتياط، على أن يأخذ محلّه بعد أسبوع. وأن يعمل الاحتياط كحرس ليلي لحركات المجاهدين الذين يمرون في قريتهم أو المستريحين فيها.

ج- تجمع القرية ما تقدر عليه من المال لمساعدة رجالها المستشهِدين، وعائلات المضطرين للتغيب أكثر من شهر.

د- على أن نمدَّهم نحن بما يمكننا من العتاد والمتفجرات والفتيل والكبسول إلخ إلخ، عدا البنادق، وبالمعلومات عن حركات الجيوش البريطانية الغاشمة، والبوليس وعيون الخونة[٣٢] إلخ..

وبينما نحن في أبحاثنا هذه، وكان الوقت قد قارب نصف الليل، وردتنا إخبارية بأن جيوش الظلم تتجمع في طولكرم لتطويق علاّر ودير الغصون[٣٣] إلخ. فأوقفنا البحث وكتب القاوقجي الكتب العديدة لرؤساء فصائله يعلمهم بما يجب، وتحركنا نحن فوراً لدير الغصون، على أن نتركها قبل التطويق إن تمكنّا. ولكنّا اضطررنا للبقاء فيها لأنَّ سيارات الجيش كانت

قد قاربتها، وقد دخلتها بعضٌ من فصائل المشاة التي كانت نزلت من السيارات وتركتها تسير في اتجاه آخر للتضليل. وقد شاهدنا أنوار السيارات العديدة وهي سائرة في الوادي.

وما أن بدأ النهار يطلع حتّى سمعنا صوت الطائرات فوقنا. وبعد أن كانت الجنود جادة في تطويق الدير[٣٤] لحماية مؤخرة الجيش المتقدم إلى علاّر، توقف هذا الأخير عن التقدم وبقي في الدير بسبب ما وافته الطائرات من المعلومات. ثم نادى المنادي في القرية أن تذهب النساء للمدرسة والجامع، والرجال للبيادر. فذهبت وصديقي (م) مع الرجال للبيادر، وفي طريقي صادفني ضابط بوليس[٣٥] يعرفني فقال الزم هدوءك فلن يعرفك أحد. ولمّا وصلنا البيادر، أمرنا أن نقف ثلاثة صفوف، وشاهدنا قادة جيش الظلم مجتمعين هناك ومعهم بعض من أفراد الشرطة الانكليز، وصديقي ضابط البوليس. وكانت الطائرات تحوم فوق رؤوسنا مرسلة الأخبار الفينة بعد الفينة. ثم جرى تفتيشنا فكان نفر من الشرطة الانكليز يمر أمامنا متعرفاً على كل واحد بمفرده، فمن شك فيه أخرجه من الصف إلى مكان خاصّ لاستجوابه، وكانت العادة أن يستمر التفتيش طيلة النهار، إلا أنّه لم تقارب [الساعة] الثامنة حتى بدأ الجيش في الجلاء السريع، ولم نعرف السبب. وفور انسحابه تركت وصديقي (م) الدير لطولكرم التي وصلناها حوالي الظهيرة، وهنالك فهمنا أنّ سبب إيقاف عملية التفتيش السريعة في الدير يعود إلى أنّ الطائرات الكاشفة أخبرت القائد أنّ تجمعات كثيرة من المجاهدين تقوم بتطويق الدير بما فيها الجيش، وهم يقترحون الانسحاب الذي تمّ. وفي المساء وصلت يافا حتى لا يلفت غيابي عن عملي نظر بوليس التحري.

٥. أتتني رسالة من صديق يافٍ مسن شهم[٣٦] كان في الشام تقول انه أرسل لي مع الصديق ح.أ.خ[٣٧] عدداً من المسدسات المطلوبة، لمكان ما عيَّنَه لي، على أن أستلمها حسب أرقامها المدوّنة في الرسالة، وأن أسَلِّمها كذلك إلى المكان المعين، وفي اليوم الثاني دخل عليَّ السيد ح.أ.خ وأخبرني بجلبه العزيز الغالي، وفوراً ذهبت إلى المكان المعيَّن وتسلَّمت البضاعة حسب المنصوص في الكتاب، وكانت صحيحة، فأخذتها وكان معي كل من م. ونجل ذلك الصديق الشهم[٣٨] مرسلِ البضاعة.

وقررنا ثلاثتنا أن نرسلها فوراً إلى مركزنا الأول قرب يافا، لأن التفتيش في تلك الأيام كان قد اشتد، وكان يقف قرب محطة بنزين أبو عابدة (قرب سبيل أبو نبّوت مدخل يافا من القدس) شرطيين للتفتيش، أحدهما إنكليزي والآخر عربي، وكان علينا أن نتبع طريقنا في اتجاه القدس، إلا أنّ الأخ نجل ذلك الصديق أعطى البوليس إشارة لأخذ الطريق المتجهة إلى تل أبيب، وهكذا غيّر اتجاهنا، والمهم أننا وصلنا بالسلام وعدنا ليافا بعد حوالي الساعة من طريق آخر.

وفي اليوم الثاني حضر عندي ذلك البوليس العربي[٣٩] وقال لقد كان في نية البوليس الانكليزي إيقافكم وتفتيشكم، ولكنكم لمّا غيّرتم اتجاه سيركم غيّر فكره، لأن ذلك الطريق يدخل إلى تل أبيب، وقد سهى عليه أنه يمكن منه التحول إلى طريق القدس أيضاً. وبعد نصف ساعة تذكر ذلك وقال لي يجب أن نوقف الدكتور (وهم يعرفونني جيداً)، ونفتشه ومن معه ولو متأخرين، وصار يفهمني كيف أقوم بالتفتيش، ولكنّكم لم تمرّوا فصار يشتم ويقول فرَّ الطير من يدنا، والحقيقة أنّها كذلك.

٦. كنت بواسطة ما، قد استحصلت على رخصة سير في أثناء منع التجول ليلاً، وصادف أن مرض أبا....[٤٠] وارتفعت درجة حرارته بسبب دمل في رجله، فخابرت الدكتور[٤١] في مستشفى الحكومة، فاقترح أن أحضر أبا.... للمستشفى، وكانت الساعة آنذاك السابعة مساءً، وفي طريقي وأبا... للمستشفى عرجت على دار أبا....[٤٢] وأخذت من عنده كمية كبيرة من الكبسول لإيصالها إلى.... ، والمسافة بين المكانين قريبة.

وفضّلت أن أسلم الكمية قبل أن أوصل أبا.... للمستشفى، وكان ذلك. وفي طريقي إلى المستشفى أوقفني بوليس نقطة العجمي وأخذني إلى داخل النقطة مع كل من أبا... وأبا...، وخابر المركز فجاء الأمر بإرسالنا مخفورين إلى الضابط كفراتا[٤٣] حيث أدخلني وبدأ باستجوابي بكل شدة. فطلبت إليه أن يلطف من حدته إن أراد منّي أن أتكلم. وفي تلك اللحظة دخل الميجور هملتون، وسمع ما قلت، فحوَّلني إليه وسألني ما أراده كفراتا فأجبته، فسألوا المستشفى فوجدوا أنّ ما قلته هو الصحيح فتركوني، وادخلوا أبا... وفحصوا رجله خوفاً من أن يكون الجرح متسبباً عن رصاصة، فلمّا وجدوا أنهم فشلوا، وأن العصفور في هذه المرة كما في المرّات السابقة فلت منهم، اعتذروا وتركوني وصحبي.

٧. [٤٤] كان الشهر شباط ١٩٣٨، والثلج قد منع الطريق ما بين بيروت والشام، فقد كسا الثلج الطريق من صوفر حتى المديرج قبيل شتورة. وكان عليّ أن أحضر من الشام إلى بيروت صديقي الدكتور صبحي أبوغنيمة[٤٥] لمسائل هامة ومستعجلة، ولم يكن أمامي إلا طريق صيدا مرجعيون، بانياس، القنيطرة فالشام. وما كنت قد سلكته قبل هذه المدة. وقد وصلتنا أخبار موثوق بها أنّ بعضاً من الدوريات الانكليزية على حدود الحولة كانت توقف السيارات على الطريق المذكور (لقربه من الحدود)، علّها تجد بين من توقفهم فريسة لها فتخطفها إلى فلسطين. ومع ذلك توجهت للشام عن ذلك الطريق وكان معي في السيارة المرحوم عارف الجاعوني (أبومجدي).[٤٦]

كانت طريقنا حتى بانياس شيقة ومبهجة، وبعد بانياس بعدد من الكيلومترات بدأنا نمشي في الثلج، ولم يكن قد مرّ قبلنا إلا سيارة واحدة واهتديت بآثارها. وكانت السماء ملبدة بالغيوم التي تذرف علينا الثلج بشدة، وكان على المرحوم[٤٧] أن ينزل بين الفينة والأخرى ليزيل الثلج الذي تراكم على الزجاج الأمامي ومنع المسّاحة من التنظيف. ويشهد الله أنّ سيارتي المدهونة بالأخضر أصبح لونها بكاملها أبيضاً ناصعاً. ولم نشعر بالأمان من الثلج وتحدره حتّى دخلنا القنيطرة. وقد قطعنا المسافة من بيروت إلى الشام عن هذا الطريق بخمس ساعات ونصف. ولأن المطر كان يهطل بغزارة على الطريق ما بين القنيطرة والشام، وكل ما حوالينا سيول متدفقة من الجبال على السهول المغمورة، وبما أنّه كان عليّ أن أعود بحملي في نفس النهار، عدت على نفس الطريق ويدي على قلبي مما سأقابله. وكان مما ظننته واقعاً لأنّ الثلوج زاد تراكمها على الطريق الذي أصبح مسلكه وعراً وخطراً، ولكنّ الله أوصلنا لبانياس بالسلامة. وكنت في الشام قد اتصلت بصديق لي مسؤول في الدرك السوري أعطاني توصية خاصة لمأمور الدرك في بانياس، الذي أرسل معنا دركياً حتى أبعدنا عن خطر دورية الانكليز على الحدود السورية الفلسطينية اللبنانية.

في يوم ما أتاني أمرٌ عالٍ[٤٨] بأن أغادر لبنان وأن أستقر في أي مكان في لواء الاسكندرونة.

وتفضل الاسكندرونة نفسها على أنطاكيا. وكان ذلك سنة ١٩٣٨ في أوائل الربيع، وذلك بناءً على طلب وإصرار المسيو كولومباني مدير الأمن العام الفرنسي [في لبنان]، وعليه غادرت بيروت فطرابلس فاللّاذقية فأنطاكية فاسكندرونة حيث بقيت حوالي الشهر. وأما الطريق ما بين اللاذقية وأنطاكية فهي في غاية الجمال. ولقد كان أغلب طريقي ساحلي ما عدا القسم الأخير من طريق اللاذقية أنطاكية وأنطاكية اسكندرونة، وهنالك وجدت أن معين بيك الماضي[٤٩] وعائلته كانوا قد سبقوني إليها، فتسلينا سوية، وتعرفت على السيد صلاح الدين عبد الباقي وإخوانه. وكان لزاماً عليّ أن أثبت نفسي في دائرة الأمن كل صباح. وقد تعرفت على تلك المنطقة مشياً على الأقدام، فكنت أتجول شمالاً وجنوباً ورفيقي كتابي في كل جولاتي. ويظهر أنّه من جلوسي على الصخور للاستراحة تولد معي دمل في مكان وعر، بسبب رطوبة الصخور وبرودتها حيث إذن لي بالسفر إلى حلب للمداواة. ومن حلب اتصلت في بيروت، وبعد السعي مع المسئولين سمح لي بالعودة لدمشق ومنها لبيروت، وقد حضر من بيروت خصيصاً لإعادتي صديقي وزميلي محمد العفيفي[٥٠].

المصادر

١ كنت قد نشرت دراسة حول حياة وأوراق الدكتور داوود الحسيني في دورية حوليات القدس العدد السادس، شتاء–ربيع ٢٠٠٨م.

٢ توفي منفياً في جنوب إفريقيا (الترنسفال) ودفن هناك في اليوم التالي لوفاته، وقد دفنه مسلمو جوهانسبرج دون حضور أيٍّ من أفراد عائلته، وجاء في يوميات طاهر الفتياني المخطوطة أنّه نعي من على مآذن الأقصى الشريف بتاريخ ١٩ شباط ١٩٤٣، وقال الفتياني في يومية ٧ آذار ١٩٤٣: «في مؤتمر الغرفة التجارية الذي عقد في يافا والذي ترأسه عمر البيطار باعتباره رئيس الغرفة التجارية وقف الجميع خضوعاً وإجلالاً لروح الشهيد السيد عارف الجاعوني ما عدا هذا الكلب الأجرب... إنه ظن أنه بعمله هذا ينتقم... ولكنه أثبت بأن معدنه من الصدأ المتآكل.» ويشير الفتياني هنا للبيطار والذي كان من أقطاب المعارضة ومن الناقمين على الحاج أمين الحسيني ورفاقه.

٣ حيث كان يعيش منذ أن نفته إسرائيل عام ١٩٦٨. قدّم الدكتور داوود شرائط التسجيل الأصلية، دون أن يحتفظ بنسخة منها، مع النصّ المطبوع للذكريات لوزارة الإعلام الأردنية للحصول على إذن لنشره، ولكنّه لم يحصل على هذا الإذن وأعيدً إليه النص مع التسويد على بعض الفقرات والجمل، كما شطبت كل تذكراتهً حول اغتيال الملك عبد الله في القدس في تمّوز ١٩٥١ واعتقاله عقب ذلك واتهامه بالاشتراك في المؤامرة، ولم يتم إرجاع التسجيلات الصوتية.

٤ يعمل الكاتب حالياً على إعداد هذه الذكريات مع كتابات أخرى للدكتور داوود ووثائق تاريخية عديدة تتعلق بنشاطه للنشر، وذلك بدعم جزئي من كلية الحقوق والعلوم السياسية في جامعة بيرزيت، والشكر ممدودٌ هنا للسيدة الفاضلة والمناضلة ديالى داوودً الحسيني الدجاني التي زودتني بنسخة من الذكريات وبمجموعة الأوراق الخاصة بوالدها والتي لم تكن ضمن مجموعة أرشيف جمعية الدراسات العربية بالقدس، وبمجموعة أخرى من الصور العائلية والخاصّة بالمرحوم والدها، كما أنّها فسحت لي المجال لإجلاء العديد من القضايا المتعلقة بوالدها من خلال عدة لقاءات شخصية. ويجدر التنويه هنا بأنّني تعرفت بالسيدة ديالى بعد نشر دراستي في **حوليات القدس**.

٥ اقتباس غير حرفي من القرآن الكريم، والآية كما وردت في سورة البقرة (٦١): «وضربت عليهم الذلّةُ والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله...»

٦ يذكر الدكتور داوود في ذكريات ١٩٨٣ أنّ من إخوانه الّذين كان يجتمع بهم غالباً: أمين عقل، ممدوح النابلسي، محمد هيكل، رشاد الدبّاغ، مصطفى الطاهر ورشدي حنّون.

٧ يمكن اعتبار هذا التاريخ تاريخاً دقيقاً لانضمام عبد الرحيم الحاج محمد للثورة، والتي بدأت بحادثة نور شمس في ليلة ١٥ نيسان ١٩٣٦، والتي خططها ونفذّها أتباع الشهيد القسّام بقيادة فرحان السعدي.

٨ في ذكريات ١٩٨٣ حديث عن تبرع الدكتور فؤاد الدجاني، وكان جراحاً معروفاً في يافا ويملك مستشفى الدجاني فيها، بمبلغ ٥٠٠ جنيه للنشاط الوطني في المدينة وتسليمه المبلغ للدكتور داوود، على أنّه لا يذكر تاريخاً لهذا التبرع وإن كان قد جاء ذكره ضمن العمل المسلّح ضد السلطة البريطانية.

٩ كان الدكتور داوود قد كتب كلمة «بالقطار» ثمّ شطبها، ويبدو أنّ السبب يعود لعدم الرغبة في كشف التفاصيل للسلطة في حالة وقوع المذكرات بيدها.

١٠ المقصود هو مصطفى الطاهر وقد كشف داوود الحسيني عن اسمه في ذكريات ١٩٨٣.

١١ في أيلول ١٩٣٧ اضطر الدكتور داوود لمغادرة فلسطين حتّى لا يتمّ اعتقاله، وأقام في بيروت، وأخذ في عام ١٩٣٨ عندما اشتدّت الثورة وأصبح لها نفوذٌ طاغٍ في فلسطين يتردد على معاقل الثوار يحمل معه المال والسلاح والتعليمات.

١٢ قد يكون ممدوح السخن هو «أبو محمود،» وقد ذكره باسم محمود النابلسي ضمن أسماء أصدقائه، كما ذكر عزة دروزة في مذكراته أنّه عمل مساعداً لعبد الرحيم الحاج محمد. كما يمكن أن يكون هو الشاب خليل بدرية الذي استشهد لاحقاً في معركة بلعا بتاريخ ٣ أيلول ١٩٣٦.

١٣ في ذكريات ١٩٨٣ يكشف الدكتور داوود الحسيني أنّ هذا الوجيه هو الشيخ مصطفى الخيري، وكان يجمع الذخيرة للثورة، ويسلمها أخاه أحمد للدكتور داوود. من المهم هنا الإشارة إلى إنّ الشيخ مصطفى الخيري كان رئيساً لبلدية الرملة، وقطباً من أقطاب المعارضة، وعضواً بارزاً من أعضاء حزب الدفاع. وهذه المشاركة منه في إمداد الثورة بالسلاح تستدعي فهماً أعمق لتركيبة المعارضة الفلسطينية ولتباين مواقف أعضائها من العمل المسلّح ضد البريطانيين.

١٤ أي الشنق بالتعليق على الحبل.

١٥ قد يكوم المقصود هو جمال طوقان وكان قائم مقام الرملة، وله علاقة مع الدكتور داوود منذ دراستهما سويةً في الجامعة الأمريكية بلبنان، وحسب ذكريات ١٩٨٣ فقد كان له مساهمة في إدخال الذخيرة من مصر لفلسطين خلال الثورة.

١٦ دخل فوزي القاوقجي فلسطين في ٢٥ آب ١٩٣٦ كان معه مقاتلين متطوعين من العراق وسورية، وغادرها في ١٣ تشرين الثاني من نفس السنة بعد أن طلبت منه اللجنة العربية العليا ذلك.

١٧ هذا يبين أنّ اتفاقه ومصطفى الطاهر مع عارف عبد الرازق للعمل في صفوف الثورة مقابل تزويده بالعتاد، كما ذكر سابقاً، كان من خلال شخص ثالث.

١٨ يصادف ٤ أيلول ١٩٣٦.

١٩ هنا يوجد شطب يستحق التدوين: «حتّى أنّ أخي حلمي قائم مقام البلدة والدكتور الخرطبيل صديقي وكذلك ضابط البوليس السيد [سليم] أمين لم يعلموا [كلمة غير مقروءة] حتّى لا أورطهم.» وفي حديث الدكتور داوود عن هذه الحادثة في ذكريات ١٩٨٣ يوجد عدة اختلافات عن ما يرويه هنا، وهو باعتقادنا في هذا النصّ أدق وأصّح من ذكريات ١٩٨٣، وذلك لقرب زمن تدوين هذا النصّ من زمن الحادثة نفسها. أمّا الفروق فبعضها في ذكر تفاصيل في نصّ وعدم ذكرها في النص الآخر، كما يوجد بعض التناقض في بعض التفاصيل، ففي ذكريات ١٩٨٣ يقول أنّه تلقّى مساعدة من مدير شرطة طولكرم أمين سليم في نقل ما يحمله من سلاح، أمّا في النص الحالي فيقول أنّه لم يعلم المدير عن وجوده في طولكرم. رواية ١٩٨٣ كالتالي: «وفي عام ١٩٣٦ دخل البلاد فوزي القاوقجي ومعه نفر من العراق وسوريا لا تحضرني أسماؤهم، وكنت أعرفه حينما كنت في بغداد، وأرسل يطلب شريطاً للمتفجرات وبعض الذخائر، وإن أمكن فبعض المال والمؤن، فقررت وزميلي مصطفى الطاهر أن نشتري مائة متر من الشريط المطلوب وبعض القنابل اليدوية، وما أمكن من الرصاص، وجمعنا خمسة آلاف جنيه، ووضعنا هذه الأغراض داخل أكياس رز وسكر، واتجهنا بالقطار إلى طولكرم. ولكن لمّا وصلنا المحطة علمت أنّ حلمي [أخي] في إجازة، وأنّ وكيله الزميل فريد السعد، فاتصلت به، فأرسل لنا مدير شرطة طولكرم الضابط سليم أمين، وكان شهماً مقداماً بكل معنى الكلمة، وتسلم الأكياس الأربعة واستأجر لنا أربعة بغال، واتجهنا عن طريق الجبل إلى قرية فرعون، فعنبتا، ثمّ صعوداً إلى بلعا فعلاّر، ووصلنا بسلام وسلّمنا الحمل تامّاً.

٢٠ قد يكون في هذا ما يشير إلى أنّ خليل بدوية هو «أبو محمود» المذكور سالفاً. وما يورده الحسيني هنا عن خليل بدوية يكمل الصورة عنه وعن بطولته، وتفاصيل هذه الصورة تناثرت في مصادر عديدة، مثل يوميات أكرم زعيتر والذي تحدث عن رسائل خليل له وهو يعمل في العراق والتماساته كي يتوسط له أكرم للدخول في المدرسة العسكرية في بغداد، الأمر الذي لم يستطع تحقيقه له.

٢١ بدأت معركة بلعا صباح الخميس ٣ أيلول ١٩٣٦ واستمرت طيلة النهار وجزء من الليل.

٢٢ تتفق هذه الرواية مع الوصف الذي أورده الدكتور محمود زايد في ذكرياته عن معركة بلعا (أنظرها في دراسته: «معركة بلعة (١٩٣٦) في ضوء مذكرات القاوقجي» المنشورة في كتاب **دراسات فلسطينية: مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق**، تحرير هشام نشابة، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨، ص ١٥٥–١٦٨.) وفيها أن الفلسطيني الذي استشهد في المعركة تلقّى رصاصةً من جندي انجليزي بينما كان في حفرة أعدت خصيصاً له ليقوم بتشغيل بطارية تفجير كانت معه في الحفرة، وكانت مربوطةً من خلال أسلاكٍ بألغام زرعها الثوار على الطريق لتفجيرها بالسيّارات وبالدبابات الانجليزية لدى مرورها، وحسب الرواية فإنّ الشهيد أطلّ برأسه من الحفرة ليتأكد من حركة السيارات فتلقّى الرصاصة في جبهته قبل أن ينجح بالتفجير. ويقول محمود زايد أنّ الشهيد كان سمكرياً من يافا. والمعروف أنّ فلسطينياً وحيداً استشهد في المعركة، والمعروف أيضاً أنّ خليل كان يعيش في يافا وقت الثورة. وعليه فمن المؤكد أنه هو المشار إليه في رواية محمود زايد.

٢٣ قرية صغيرة من قرى طولكرم.

٢٤ هذه العبارة بين الأقواس كتبت أعلا عبارة مشطوبة تقول: «حيث كان ينام من يومين.»

٢٥ قرية من قضاء طولكرم تقع بينها وبين نابلس على الطريق العام، ومنها الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود.

٢٦ قرية أخرى من قرى قضاء طولكرم وتقع بينها وبين نابلس على قمة جبل مطلٍ على الطريق العام، وبقربها جرت أولى معارك الثوار العرب تحت قيادة فوزي القاوقجي.

٢٧ استخدم الانجليز سياسة العقاب الجماعي بكثافة خلال الثورة العربية الكبرى.
٢٨ قرية أخرى من قرى قضاء طولكرم.
٢٩ في البداية كتب من قولها ثم شطب كلمة «قولها» ووضع بدلاً منها كلمة «شكلها.»
٣٠ هنا يتناقض النصّان بوضوح حيث في ذكريات ١٩٨٣ قال أنّه كان يعرف القاوقجي من بغداد، والذي نعرفه من تتبع حياة الدكتور داوود أنّه ذهب للعراق في بداية الحرب العالمية الثانية مع من لجأ إليها من الفلسطينيين عقب تضييق السلطات الفرنسية عليهم في لبنان وسورية، بعد أن تحالفت مع بريطانيا ضد ألمانيا النّازيّة. ولربما يكون اتصاله بالقاوقجي في العراق خلال هذه الفترة، وليس قبل الثورة الفلسطينية.
٣١ هنا يوجد جملة مهمة شطبها الدكتور داوود وتقول: «وفخري عبد الهادي الذي لم تفسده المفاسد حتّى ذلك التاريخ.» إنّ قصة علاقة فخري عبد الهادي بالثورة وبزعامتها السياسية، وعلى قمتها الحاج أمين الحسيني، لممّا يستحق الدراسة خصوصاً في ضوء توفّر مجموعة ذكريات ورسائل شخصيّة لفخري نفسه.
٣٢ منذ بدابة الثورة وهي تواجه مشكلة المخبرين والجواسيس من الفلسطينيين الذين كانوا يعملون مع البوليس الانجليزي، وقد فتحت عمليات اغتيالهم الباب أمام الفوضى والنزاع لأنّ السلطة والحركة الصهيونية دخلتا من هذا الباب وقامتا بعمليات اغتيال نسبت للثوار، وذلك لإيقاع المزيد من الفتنة والتسبب بالنزاع بين العائلات المختلفة.
٣٣ قرية أخرى من قرى قضاء طولكرم.
٣٤ أي دير الغصون.
٣٥ تدلّ هذه القصة على تعاطف أفراد من البوليس العربي مع الثورة.
٣٦ حسب ذكريات ١٩٨٣ فإنّ المقصود هو الحاج سليم أبو لبن وكان من كبار تجّار يافا.
٣٧ هو حسب ذكريات ١٩٨٣ الشاب حلمي أبو خضرة، وقد نقل المسدسات عبر الحدود اللبنانية الفلسطينية «لأنّه لم يكن منتمياً لأيٍّ من الحركات السياسية أو الثورية.»
٣٨ المقصود هما مصطفى الطاهر و أحمد أبو لبن.
٣٩ هذه قصة ثانية تدل على تعاطف أفراد من البوليس العربي مع الثورة.
٤٠ الاسم مشطوب، وربما يكون خالد.
٤١ اسم الطبيب حامدة أو حمادة وتمّ شطب الاسمين. و يعزّز شطب الأسماء واستخدام الرموز المتكرران استنتاجنا بأنّ النص كتب قبل رحيل الإنجليز عن فلسطين.
٤٢ المقصود هنا شخص آخر غير المريض، وقد يكون المقصود أحمد أبو لبن.
٤٣ ضابط من ضباط البوليس الانجليزي وكان معروفاً بعدائه للعرب وقد جرت محاولة لاغتياله ولكنها لم تنجح.
٤٤ كتب الدكتور داوود الفقرة هذه بعد أن كان قد كتب الفقرة ٨، ولكنه أعاد الترقيم، فجاءت الفقرة ٨ في النص قبل الفقرة ٧، وقد آثرنا اعتماد ترتيب الفقرات كما أراد الكاتب، فوضعنا ٧ قبل ٨.
٤٥ من الزعماء الوطنيين الأردنيين، عارض الأمير عبد الله وانتقد رضوخه لأوامر الانجليز. عاش فترة طويلة لاجئاً في سورية. وهنا يوجد تباين بين ما يرد هنا في المذكرات التي كتبت في عهد الانتداب البريطاني وبين ما ذكر في ذكريات ١٩٨٣ حيث يرد فيها أن الشخص الذي كان مطلوبٌ إحضاره هو علي العجلوني، وتداخل الأسماء بعد مرور أكثر من أربعة عقود أمرٌ مفهوم وطبيعي، على أنّ هذه التباينات بين نصّين كتبهما نفس الشخص مع فارق يزيد عن ٤٠ سنة بينهما مفيد للمشتغلين بالتاريخ الشفوي، وضرورة أن يقارنوا الروايات التي يجمعونها مع المتوفر من الوثائق التاريخية.
٤٦ عارف الجاعوني من القدس، وكان من أخلص العاملين مع الحاج أمين الحسيني، وقد عمل في المجلس الاسلامي الأعلى، ورافق الحاج أمين في العديد من رحلاته لخارج فلسطين قبل قيام الثورة، وعندما قامت اشترك فيها وأشرف على عدد من عمليات الاغتيال لعملاء الإنجليز، وهو الذي ساعد الحاج أمين بالخروج في تشرين الأول ١٩٣٧ من داخل الحرم إلى يافا حيث أبحر لبيروت. ألقى الانجليز القبض عليه في الحرب العالمية الثانية، بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني ونفوه إلى روديسيا حيث توفي ودفن فيها سنة ١٩٤٤، وكون الكاتب يشير إليه بالمرحوم دليل آخر أنّ هذا النص كتب حوالي العام ١٩٤٥ أو بعده بقليل.
٤٧ أي عارف الجاعوني .
٤٨ من المؤكد أنّ الأمر جاء من الحاج أمين الحسيني.
٤٩ من زعماء حيفا المعروفين وأصله من قرية إجزم، وكان من مؤسسي حزب الاستقلال في فلسطين، وشارك في الثورة الكبرى وكانت له صلات قوية بالقسّاميين، ممّا أهّله ليكون حلقة الوصل بينهم وبين القيادة السياسية.
٥٠ عمل العفيفي في المجلس الإسلامي الأعلى، وشغل لفترة منصب مأمور أوقاف يافا. شارك في الثورة ثمّ اضطر للخروج بعد اشتداد بطش الانجليز بالثورة ومؤيديها.